التوحيد (٢)

الدرس التاسع

باب قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

هل الأفضل للإنسان أن يغلب جانب الخوف أم الرجاء؟ فيه خلاف بين أهل العلم ، فمن أهل العلم من قال : يغلب جانب الرجاء تفاؤلاً؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل، ومن أهل العلم من قال: يغلب جانب الخوف لكي يمنعه من ارتكاب المعاصي، وقال بعض أهل العلم بالتفصيل: ففي فعل العبادة يغلب جانب الرجاء، وفي فعل المعصية يغلب جانب الخوف ليحمله على ترك المعصية وعدم الوقوع فيها.

ليس المراد بأن الشيطان يخوف أولياءه، أنهم يخافون منه، بل المراد أنه يخوفهم من العبادة فيتراجعون عنها، وهذا يحدث كثيراً ممن لا يقدم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال المؤلف رحمه الله: وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

الشرح: الذي يخشى الله تعالى هو المؤمن، وهي من صفات العلماء كما قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}فاطر٢٨، ولا يشترط في توفر الخشية أن يكون الخاشي من أهل العلم، لكن الخشية بقدر العلم، بخلاف الخوف الذي قد يصدر من الجاهل، والمؤمنون يشتركون بقدر من الخشية ويتفاوتون فيه بحسب ما لديهم من العلم، فأهل العلم الراسخون لا يخشون أحداً إلا الله تعالى، قال تعالى: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً}الأحزاب٣٩، وهؤلاء هم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لا يخشون سلطاناً من أهل

الأرض، فيقومون بما أمرهم الله تعالى من أمر الناس ونهيهم، حتى لو كان المنكر عند الحاكم، كما أن العلماء يتفاوتون في الاتصاف بهذا القدر من الخشية، وفي حديث أبي أمامة قال: (عرض لرسول الله صلي الله عليه وسلم رجل عند الجمرة الأولى، فقال: يا رسول الله! أي الجهاد أفضل؟ فسكت عنه فلما رمى الجمرة الثانية سأله؟ فسكت عنه، فلما رمى جمرة العقبة، وضع رجله في الغرز ليركب، قال: أين السائل؟ قال: أنا يا رسول الله. قال كلمة حق عند ذي سلطان جائر) رواه أحمد وابن ماجه.

قال المؤلف رحمه الله: وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾.

الشرح : هذه من صفات الذي لا يتجاوز الإيمان ألسنتهم ، وهم كثير ، وربما يكون من المسلمين من يشابههم في ذلك ، فيكون عديم التوكل لا يحمل في قلبه خوفاً من الله تعالى ، وهؤلاء أخون ما يكونون في السراء ، أجبن ما يكونون في الضراء ، فيهم صفات المنافقين ، الذين يرتدون لأدنى أمر يواجههم ، قال الله تعالى : {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ}العنكبوت١٠، قال سبحانه وتعالى بعدها: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ }العنكبوت١١.
وقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}الحج١١.

قال المؤلف رحمه الله: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ.
الشرح: هذا الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان وابن نعيم في الحلية، وهو ضعيف جداً.

قال المؤلف رحمه الله: وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رضي الله عنه وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي (صَحِيحِهِ).

الشرح: أعظم مطلوب للمؤمن رضا الله تعالى عنه، وإذا رضي الله عن عبده فلن يشقى، وقد وعد الله عباده المؤمنين بالرضا عنهم يوم القيامة، قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}التوبة١٠٠، وقال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ{٧} جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ{٨} سورة البينة

وفي الدنيا يرضى الله عنه ويرضي عنه الناس، حتى وإن سخطوا عليه وكرهوه فإن الله تعالى يضع له القبول والرضا في قلوب الناس، وأما من التمس رضا الناس وكان غايته إرضاءهم حتى لو كان على حساب غضب الله ، فإن الله تعالى يعاقبه بسخطه سبحانه ، ويسخط عليه الناس، قال ابن الجوزي في صيد الخاطر: قال المأمون لبعض أصحابه :"لا تعص الله بطاعتي فيسلطني عليك" ا.هـ

والوصول إلى رضا الله تعالى له أبواب، فمن أبوابه:

١- طاعته سبحانه وتعالى واجتناب معاصيه.

٢- طاعة الوالدين ونيل رضاهما، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رضا الله في رضا الوالد وسخط الله في سخط الوالد. رواه ابن حبان

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو لب رضا الله تعالى وسخط الناس، فإن كثيراً من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر يسعون إلى رضا الله تعالى وتخليص المجتمع من الفساد، فيلاقون من سخط الناس في

سبيل ذلك الشيء الكثير، وغالباً ما ينال رضا الله تعالى بأذى.

ولا يدري العبد أي العمل ينال به رضا الله تعالى، فلا يحقر شيئاً من الأعمال، وقد ثبت عن أبي ذر، قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق". رواه مسلم، فغيرها وما هو أعلى منها أولى بأن ينال بها رضا الله تعالى.

معهد العلوم الشرعية العالمي

باب قول الله تعالى:
(وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

تقديم الجار والمجرور يدل على حصر التوكل على الله تعالى بالمؤمنين.
والتوكل: هو الاعتماد على الله تعالى في جلب المطلوب وزوال المكروه مع بذل الأسباب المأذون فيها شرعاً.
ومن التعريف نعرف أنه لابد في التوكل من اجتماع أمرين مهمين:
الأول: أن يكون التوكل والاعتماد على الله وحده.
الثاني: بذل الأسباب المأذون فيها شرعاً.

قال المؤلف رحمه الله: وقوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) الآية.

الشرح: من صفات المؤمنين أنهم يتوكلون على ربهم سبحانه وتعالى في كل أمورهم، بل جعله الله حصراً على المؤمنين {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}التغابن١٣، وأقرب ما يكون المؤمن تحقيقاً للتوكل في الأزمات التي يتبين فيها المؤمن من ضعيف الإيمان ويتبين فيها الصادق ممن يدعي الصدق مع الله، قال تعالى: {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}التوبة٥١، وقال سبحانه: {إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ}آل عمران١٦٠، وقوله سبحانه: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}آل عمران١٧٣.
والناس في التوكل طرفان ووسط:
الأول: من يغلب جانب بذل الأسباب، ويضعف لديه التوكل، وربما جرد قلبه من أي توكل على الله، فإذا وصل الحال إلى ذلك فهو شرك أكبر، والذي ينقص عنده التوكل ينقص توحيده بقدر ما نقص من التوكل.

الثاني: من يتوكل على الله تعالى دون بذل الأسباب، وهذا في حقيقته لا يسمى متوكلاً إلا من باب التجوز، وإلا فهو ضعيف التوكل، لأن التوكل حقيقة لا يكتمل إلا ببذل السبب، وقد كثر تحذير السلف من التواكل، فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ا.هـ ، وروى سعيد بن منصور في سننه عن ابن مسعود من قوله: إني لأكره الرجل فارغاً لا في عمل الدنيا ولا في الآخرة.

وكثيراً ما يكون الخلل في فهم حقيقة التوكل كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى{وتزودوا فإن خير الزاد التقوى}. رواه البخاري.

الثالث: أهل التوكل الذين يبذلون الأسباب، وهو الذي تدل النصوص الشرعية على الأمر به وإثبات فضله، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا. رواه الترمذي وغيره وهو صحيح، وثبت عن أسامة بن شريك قال قالت الأعراب يا رسول الله ألا نتداوى قال نعم يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو قال دواء إلا داء واحدا قالوا يا رسول الله وما هو قال الهرم. رواه أحمد وأهل السنن.

فهم يأخذون بالأسباب التي أوجدها الله تعالى وهم في ذات الوقت يتوكلون عليه سبحانه ، فالجمع بين بذل السبب والتوكل على الله تعالى هو منهج الوسط، وهم في ذلك لا يتعلقون بالأسباب بل يتعلقون بخالقهم.

قال المؤلف رحمه الله: وقوله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

الشرح: حسبك أي كافيك، وحسب من اتبعك من المؤمنين، ونقل عن الكسائي أنه قال: وحسبك من اتبعك من المؤمنين ببذل أنفسهم دونك.

قال المؤلف رحمه الله: وقوله (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ).

الشرح: من توكل على الله تعالى كفاه ما أهمه ويسر له أمره ، وإن أصابته ضراء لم يتضرر منها؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم وهو أعظم

المتوكلين كان يصيبه الضر فلا يتضرر بذلك، ومن كان عديم التوكل تخلى الله عنه ووكله إلى ما وكل نفسه إليه، ولم ينتفع بسراء تحصل له.

قال المؤلف رحمه الله: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل). قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له: (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) رواه البخاري.

الشرح: أعظم التوكل ما كان عند الأزمات، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام أراد قومه أن يحرقوه في النار، فلما أشعلوها وقذفوه فيها قال (حسبنا الله ونعم الوكيل)، فنجاه الله تعالى بتوكله على الله، {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ}الأنبياء٦٩، وقد روى ابن إسحاق أن أبا سفيان رجع بقريش بعد أن توجه من أحد فلقيه معبد الخزاعي فأخبره أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في جمع كثير، وقد اجتمع معه من كان تخلف عن أحد وندموا، فثنى ذلك أبا سفيان وأصحابه فرجعوا، وأرسل أبو سفيان ناسا فأخبروا النبي صلى الله عليه وسلم أن أبا سفيان وأصحابه يقصدونهم فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

معهد العلوم الشرعية العالمي